ان منشأ الصهيونية وتطورها يشيران الى استنتاج منطقي ومنسجم مع ذاته، وهو أن الحل الصهيوني لمسألة اليهود، انما هو حل البرجوازية اليهودية الكبيرة لأزمتها المرتبطة بالأزمة العامة للنظام الامبريالي كله. اذ انها تشكل جزءاً أساسياً منه وبالتالي شريكاً لا غنى عنه.

حركة استعمارية لا قومية

من الناحية التاريخية، شهدت نهايات القرن التاسع عشر انتقال الرأسمالية الى أعلى مراحلها وهي: الامبريالية، وشهد مطلع القرن العشرين، موضوعياً ولادة النظام الاشتراكي العالمي. ترافق ذلك مع تنامي الحركة الثورية العالمية المتمثلة في نضال الحركات العمالية في البلدان الرأسمالية المتطورة ونهوض الكفاح التحرري لشعوب المستعمرات. وقد أعطى ذلك كله المؤشر التاريخي الصحيح على حل مشكلة اليهود. ان ظاهرة صحية ووليدة نشوء تاريخي في أوساط اليهود، تأتي فقط، في سياق المسار التاريخي لحتمية انتصار الثورة الاشتراكية وحركات الشعوب التحررية. ولا تكون ظاهرة كهذه الّا من خلال الفرز الطبقي في أوساط اليهود، بحيث ينحاز فقراؤهم الى جانب البروليتاريا وعموم المضطهدين في العالم ليناضلوا في جبهة متحدة ضدّ القوى الرجعية المعادية لتطلعات الشعوب نحو الحرية والتقدم الاجتماعي. في حالة كهذه، يتحدد موقع البرجوازية اليهودية الكبيرة، الساعية الى اعادة عجلة التاريخ الى الوراء، في صف الأعداء الطبقيين للجماهير اليهودية أنّى تكن. هنا يكمن الفارق الجوهري بين توجه الامبريالية والصهيونية لتأسيس دولة قومية، خارج أوروبا وأميركا «بالضرورة»، للقومية اليهودية التي كشف ماركس عن جوهرها وأبعادها بقوله: «ان قومية اليهودي الوهمية، هي قومية التاجر، قومية رجل المال بالتحديد»[٥٥]. ووصفها لينين بأنها «فكرة صهيونية رجعية وخاطئة تماماً».[٥٦]. وبين حركات التحرر الوطني بكل خصائصها القومية المتوافرة تاريخياً والتي نشأت عن شعوب نهضت لتحقيق سيادتها القومية على أراضيها وثروات بلادها، فحاربت الاستعمار والامبريالية ولم تنبثق عنهما. في حين تأسست الحركة الصهيونية على قاعدة اغتصاب اراضي الغير بالقوة والابادة الجماعية للسكان الأصليين. ثمة فارق آخر جوهري وهو ان حركات الشعوب التحررية قد تشكلت بانسجام مع مسيرة التاريخ الحتمية، بينما جاء مشروع الدولة الصهيونية عكساً لمجرى التيار. فالحركات التحررية للشعوب تقدمية بالضرورة، لأن نضالها يشكل مزيداً من الهزائم للنظام الامبريالي، في حين يشكل وجود الصهيونية تعزيزاً لمواقع الامبريالية وانعكاساً لأزمتها في آن معاً.

كما لا تنطبق على الصهيونية الشروط التاريخية التي نشأت فيها القوميات الأوروبية الحديثة، اذ لم تتوافر لليهود في تلك البلدان الخصائص المجتمعية اللازمة لنشوء الامة، فقد تأسست الصهيونية في أوروبا، في مرحلة تاريخية كانت فيها البرجوازيات الأوروبية قد أنجزت دورها التقدمي وأصبحت رجعية، تبحث عن أسواق خارجية لبضائعها ومجالات استثمارها على حساب الشعوب الأخرى من العالم. يقول ابراهام ليون: «بينما نرى أن الحركة القومية هي نتيجة مرحلة الرأسمالية الصاعدة، نرى أن الصهيونية هي ثمرة عصر الامبريالية[٥٧]»، أي واحداً من افرازاتها. وهنا تجدر الاشارة الى أن قادة الصهيونية، بمن